

مصطلح التناصّ عند عبد الملك مرتاض من البلاغة القديمة إلى الأسلوبية الحديثة.

الأستاذ: إسماعيل زغودة

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف الجزائر

الملخص باللغة العربية :

يعد التناص من المصطلحات التي نالت القدر الكافي من التحليل والتوصيف. فما من دارس إلا وتطرق إلى الموضوع قديما وحديثا. ولما كان الأمر كذلك. تروم هذه الورقة البحثية إلى كشف السر الكامن وراء تعدد المصطلحات التي تصب في مفهوم التناص.

الملخص باللغة الفرنسية :

L'un ter textualité est considérée parmi les termes qui ont obtenus un certain degré d'analyse et de description. A car il n'est un chercheur n'a pas abordé ce sujet depuis le passé et jusqu'aujourd'hui.

Ce étant donné ce ci. cet article de recherche tente de découvrir le mystère qui se cache derrière la polysémie qui découle sur le terme d'in ter textualité

الكلمات المفتاحية: التناص، السرقة الأدبية، التخمين، النقد العربي.

Mots clés: intertextualité- le plagiat - la connotation- critique occidentale.

تمهيد:

ولما كان الأمر كذلك أردنا من خلال هذه الدراسة، البحث عن المصطلحات التي استعملها الدارس الجزائري عبد الملك مرتاض، والتي تصب في مفهوم التناص، منطلقين في ذلك من مجموعة من الإشكاليات أهمها: هل توافق المفهوم الحديث (الغربي) للتناص مع المفهوم القديم (المصطلحات العربية المختلفة)؟ وأي المصطلحات التي يؤثرها الباحث عبد الملك مرتاض؟ هل هو للقديم متعصب؟ أم أنه للحديث مصطحب؟ هل يؤثر رداء البلاغة أم أنه ارتدى ثوب الأسلوبية الجديد؟

مفهوم التناص لغة:

ما ورد في الجذر اللغوي نصص، النص: وهو رفعك الشيء، ويقال نصّ الحديث إلي فلان أي رفعه، ويقال كذلك نصّص المتاع إذا جعلت بعضه على بعض، ونص الرجل نصاً إذا سألته حتى يستصني ما عنده ونص كل شيء منتهاه وفي حديث هرقل ينصّهم أي يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام¹.

مفهوم التناص اصطلاحاً:

يعد التناص من المصطلحات الحديثة التي اختلف في نسب استعمالها لأول مرة، غير أن الكثير من الدارسين من يلصق هذا

عرف النقد العربي في العصر الماضي تطوراً ملحوظاً في المفاهيم والمصطلحات حيث أننا بمجرد فتح مؤلف نقدي حتى تصادفك مجموعة من المصطلحات التي لم تكن متداولة في العصور القديمة، كما أنها لم تشع إلا في النصف الثاني من القرن الماضي، أي بعد تداولها في النقد الأوربي لأن الوطن العربي برمته تقريباً كان يعيش تحت وطأة الاستعمار.

بيد أننا إذا قمنا بمباحثة في قضية المصطلح والمصطلحية في الدراسات العربية اعترضتنا عدة إشكالات أهمها انعدام ضبط المصطلح والتوافق عليه، كما أنه لا يوجد طرائق علمية لوضعه، ما يجعل المتلقي يضطرب بين المؤلفات، حيث أننا نجد المؤلف الواحد يستعمل عدة مصطلحات لمفهوم واحد.

يعد التناص، بتسميته الحديثة، من أكثر المصطلحات شيوعاً في النقد المعاصر، وخاصة في الدراسات الأسلوبية، لكونه من العناصر التي لا بد على الأسلوبية أن يدرسها لأنه يعود بالمتلقي إلى المرجعيات والخلفيات التي انطلق منها المؤلف، غير أن هذا المصطلح كان منتشراً في البلاغة العربية القديمة ومازال إلى اليوم موسوم بتسميات مغايرة أهمها: السرقات الأدبية، الاقتباس، الإغارة، الهتك، التضمين...

¹ - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مج: 07، ط1 (1990)، ص: 97، 98.

المصطلح بالدارسة جوليا كريستيفا، وترى رائدة هذا المصطلح أن التناص "هو النقل لتعبيرات سابقة أو مترامنة وهو اقتطاع أو تحويل... وهو عينة تركيبية تجمع لتنظيم نصي معطى بالتعبير المتضمن فيه أو الذي يحيل إليه"².

إن أي نص هو محصلة لنصوص أخرى سبقتة في الوجود، إذ لا يمكن للناس (المبدع) أن ينتج نصا من دون أن يقيم علاقات مع نصوص أخرى، فكل النصوص تبنى على خلفيات فكرية أو مرجعيات فلسفية أو جماليات شعورية، كما أن تخير الألفاظ والعبارات يكون اقتداء بمن سبقه في حدود الإعجاب والتأثر، وعليه يكون النص المتأخر في شبكة علائقية مع نصوص أخرى حديثة كانت أم قديمة، فكل نص يتشكل من تركيبية فسيفسائية من الاستشهادات، وكل نص هو امتصاص أو تحويل ممتصا أو متحولا تماما من نصوص أخرى، إذ لكل نص خصوصيته وتفرده وتميزه، وإلا كان مستنسخة من النص أو النصوص التي امتصها أو حولها³.

فالتناص إذن هو تبادل، وحوار وإتحاد وتفاعل وتصارع بين النصوص، وهو خاصية من الخصائص الفنية التي تتسم بتضامن

النصوص، باعتباره شيئا فنيا مرتبطا بطبيعة البنية الشعرية للنص وبين الاستشهاد التعليمي المقصود، وهو الذي يعني السرقة الحرفية، أو التماثل التطابقي التام، فالتناص المقصود، هو الذي يعنى بالمتناص، يكسبه شكلا ومضمونا مختلفا، إذا أصبح النص مجموع الاقتباسات المجهولة والمقروءة والاستشهادات واللاشعورية والاستساخية .

تتجلى ديناميكية التناص واشتغاله في إنتاج النصوص في قوة سلطته على النص المتناص، ومدى تأثيره فيه، أي أن النص الجديد يصبح أقوى دلالة وإيحاء من النص القديم، إذا كان التحول من النص الأول إلى النص الثاني تحولا سليماً، لا يشعر المتلقي به، فيصبح النص المتناص جزءاً لا يتجزأ من النص الثاني الذي بنى قاعدته على الأول.

أول من بلور مصطلح التناص كمفهوم يعني: العلاقة بين النصوص تحدث بكيفيات مختلفة هو مخائيل باختين Mikhail bokhtine ثم جاء بعده العديد من الأسماء من أمثال لوتمان louthmen بول زمثور zamthor، جوليا كريستينا، جيرار جنيث...

فالمعنى ليس ثابت، لأن الدلالة تتكون من حركة جماعية يأخذ فيها الإبداع شكل عمل الجماعة⁽¹⁾ ثم انتقل هذا المصطلح إلى النقد الفرنسي، وأول

² - ماجد ياسين الجعافرة: التناص والتلقي، دراسات في الشعر العباسي، دار الكندي، ط1 (2002)، ص: 11، 12.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 12.

من استخدمه بطريقة منهجية في الدراسات النقدية المعاصرة جماعة تالكيل Telquel الأدبية النقدية التي اكتشفت لعبة العلاقة بين النصوص وبينت أن النصوص تمثل في علاقتها نظاما خاصا يتولد ويتناسل مع عدة نصوص سابقة⁴.

ويمكن تعريف التناص على أنه "دراسة الخطاب الأدبي بوصفه جزءا من سياق إبداعي أشمل ، ويبحث التناص عن مظاهر وشروط انضواء النص موضوع الدراسة في سياقه العام وأشكال استفادته من النصوص وما أنتجه النص الجديد من معنى أدبي نتيجة ذلك كله وما كسبته التجربة الجمالية من ابتكار الشاعر أو الكاتب⁵.

يعد التناص مصطلحا حديثا في التسمية قديما في المفهوم، عرف في القديم بمسميات مغايرة ولكن بالمفهوم الذي هو عليه اليوم، فهو التفاعل بين النصوص بالأخذ والعطاء، أو هو ارتكاز نصوص جديدة على ألفاظ أو معان سابقة لها،

فكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى⁶.

إن النصوص الجديدة مهما بلغت من الرقي في البلاغة والتصوير الفني ستظل مرتبطة بنصوص سبقتها لأن ألفاظ اللغة العربية على كثرتها إلا أنها محدودة بعدد معين، واستعمال هذه اللفظة أو العبارة في نص ما حتما سنجدها قد استعملت في نصوص أخرى، وربما لنفس المعنى المقصود، وعليه فأى نص كيفما كان جنسه يتعلق بغيره من النصوص بشكل ضمني أو صريح⁷.

يختلف التناص من أديب إلى آخر، فنجد مثلا بعض الأدباء _ في الشعر أو النثر _ يأخذ النص بلفظه ومعناه، ونجد البعض الآخر يأخذ الفكرة دون اللفظ، وعليه يمكن أن يتفرع التناص إلى أربعة أنواع:

1. التناص الجلي:

يظهر من خلال التسمية على أنه تفاعل نص مع نص آخر بطريقة واضحة جلية، فهو إما نهب لنص آخر والإغارة عليه، أو أن صاحب النص ينهب إلى أنه قد أخذ عن غيره بطريقة واضحة، فهو إذن،

⁴ - ينظر: جمال مباركي، التناص وجماليته في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر (2003)، ص: 117.

⁵ - ينظر: رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة جمالية، دار الوفاء مصر، ط1 2002، ص 338.

⁶ - ينظر: عمر عبد الواحد، دوائر التناص، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1 (2003)، ص: 13.

⁷ - ينظر: سعيد سلام، التناص التراثي، الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1 (2010)، ص: 43.

مجموعة من التنصيصات ذابت وتحولت
آخذة من بعضها البعض، فالكلمة والنص
ما هما إلا تقاطع بين سابق ولاحق⁸.

2. التناسخ الخفي:

هو اختفاء التناسخ وعدم التنبه إليه أو إدراكه إلا من خلال المعرفة الدقيقة بالنصوص، فالمتلقي ها هنا لا بد أن يكون على قدر وفير من الاطلاع، ويعمل صاحب النص أثناء تلاقيه مع نصوص أخرى على القلب والزيادة والاحتجاج وتغيير النمط والترتيب حتى لا يظهر التناسخ، وإذا كان التناسخ على درجة كبيرة من الخفاء لا يمكن الوقوف عليه ومعرفته إلا لمن كان حافذاً لأقوال العرب السابقين وكان لديه علم بتصريف مجاريها⁹.

3. التناسخ المباشر:

يقوم فيه الأديب باستحضار نصوص أخرى لغرض الوصول إلى هدف فني أو فكرة معينة منسجمة مع نصه، لا يهم نوعية النص ها هنا، إذ يمكنه التناسخ مع النصوص التاريخية أو الدينية أو الأدبية وحتى العلمية، إذ يقتبس النص بلغته التي

ورد فيها مثل: الآيات والأحاديث والأشعار
والقصص¹⁰.

4. التناسخ غير المباشر:

في أحيان كثيرة يمكن للفكرة أن تلتقي مع أفكار أخرى سابقة لها، فلا يمكن لصاحبها أن يتحرر أو يستغني عنها لأنها قد تغذي نصه بنتائج كان المأل إليها محفوظاً بالصعاب، غير أنها وظفت في قالب لغوي غير الذي وظفت فيه الأفكار السابقة، وعليه نتساءل هل صاحب النص المتناسخ مع النصوص السابقة كان عن وعي أم لا؟ فالتناسخ غير المباشر هو "تناسخ الأفكار أو المقروء الثقافي أو الذاكرة التاريخية التي تستحضر تناسقاتها بروحها أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها أو نسبتها إلى أصحابها، وتفهم من تلميحات النص وإيماءاته وشفراته وترميزاته"¹¹.

ما يمكن أن نستنبطه مما سبق ذكره هو أن التناسخ قد يكون واضح المعالم بلفظه ومعناه، يباشر صاحب النص الأخذ من نصوص أخرى دون أي مشكل، ويمكنه أن يكون خفياً غير واضح، يقوم صاحب النص بالأخذ بطرائق غير مباشرة.

أشكال التناسخ:

للتناسخ أشكال ثلاثة هي:

⁸ - ينظر: حسين منصور العمري، إشكالية التناسخ، مسرحيات سعد الله ونوس أنموذجاً، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1 (2007)، ص:32.

⁹ - ينظر: مصطفى السعدني، في التناسخ الشعري، مطبعة الجلال، الاسكندرية (2005)، ص:112.

¹⁰ - ينظر: ماجد ياسين الجعافرة، مرجع سابق، ص:15.

¹¹ - المرجع نفسه، ص:15،16.

• التناص الذاتي: وهو تفاعل نصوص الكاتب الواحد بعضها مع بعض، سواء من الناحية اللغوية والأسلوبية وحتى الدلالية، فيمكننا أن ننسب نصا ما إلى صاحبه دون علم من خلال فعل القراءة لأننا على دراية بأسلوب كتابته.

• التناص الداخلي: هو التقاء نص مع نصوص أخرى تعاصره سواء أكانت هذه النصوص أدبية أو غير أدبية.

• التناص الخارجي: هو تداخل نص مع نصوص أخرى ظهرت في عصور بعيدة عنه.

التناص عند العرب القدماء:

تنبه العرب القدماء إلى هذه الفكرة الأدبية من خلال الممارسة الدقيقة التي كانوا يتعاملون بها مع الأدب وخصوصا الشعر، فالسرقات الشعرية، أو الأدبية، هي مصطلح يدل على مفهوم التناص (المصطلح الحديث)، وأول من تنبه إليها في نظر عبد الملك مرتاض هو علي بن عبد العزيز الجرجاني؛ حين رأى أن العرب تشترك في وصف الأشياء وتوصيفها "لاحظ وجود أفكار كثيرة مشتركة بين الناس كتشبيه العربي كلّ جميل بالشمس، والبدر، وكل جواد بالغيث والبحر، والبليد البطيء الإدراك بالحجر والحمار،

والشجاع الماضي بالسيف والنار، الصّبّ المستهام بالمخبول في حيرته"¹².

لقد اهتم الدارسون القدماء بموضوع السرقات الأدبية أو التناص، حيث أن السرقة الأدبية عرفه أكثر من ناقد واحد، كما أننا إذا عدنا إلى المؤلفات النقدية القديمة نجد معظمها يتحدث عن هذه الظاهرة، كما أنهم استدلوا بكثير من الأمثلة سواء أكانت هذه السرقة حرفية أو معنوية، من أديب معاصر أو غير ذلك، وهذه الدراسات "صاحبها كثير من التوفيق إذ كانوا يلجأون في أكثر نقدهم إلى الموازنة بين أديب وأديب، وكان من أهم ما عنوا به في هذا المجال الفحص عن نواحي الاتفاق بين أديبين، ثم ما ينفرد به أحدهما من صاحبه سواء أكان مرجع الاتفاق أو الاختلاف إلى التفكير، أم كان مرده إلى التصوير، وقد بذلوا في هذا السبيل كثير من الجهود، تدل في أكثرها على الذوق السليم، كما تدل على تعمقهم في فهم الأدب، وقدرتهم على تحليله"¹³.

السرقة الأدبية ظاهرة موجودة في الأدب العربي القديم، كما هي موجودة في جل الآداب العالمية الأخرى، فقد ذاع صيتها في العصور الأولى، فلا نجد أدبا ما سلم من

¹² - عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر (2005)، ص: 197.

- بدوي طبانة: التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، ط3 (1406-1986)، ص: 311.¹³

هذه الظاهرة ومرد ذلك هو عدم وجود وسائل تكنولوجية كما هو في عصرنا هذا لمعرفة السارق، وبالتالي فالأخذ كان متفشياً في الأدب العربي القديم سواء أكان قصداً أو من غير قصد.

وعليه فلا عجب حين "يحدثنا الرواة أن شاعراً كبيراً كالفرزدق كان إذا أعجبه شيء من شعر معاصريه طلب إلى صاحبه أن يتنازل عنه له، فإذا أبى توعده وهدده بالهجاء، ثم أخذه عنوة وأدّعه لنفسه" ¹⁴.

ومن الأمثلة الدالة على قدم هذه الظاهرة الأدبية ما استنتجه الدارسون على أن امرأ القيس وقع في تناسخ مع ابن حذام من خلال الوقوف على الأطلال، ومما جاء في الإيضاح في علوم البلاغة: "أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده:

**إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته
على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركبُ حدَّ السيف من أن تضميه
إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل.**

ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن أوس المزني فأنشد قصيدته التي أولها:

**لعمرك ما أدري وإني لأوجل
على أئنا تعدو المنية أول.**

- عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2 (1391- 1972)، ص: 311. ¹⁴

حتى أتى عليها، وفيها ما أنشده عبد الله، فأقبل معاوية على عبد الله، وقال له: ألم تخبرني أنهما لك؟ فقال: المعنى لي واللفظ له فهو أخي من الرضاعة وأنا أحق بشعره" ¹⁵.

إن الأمثلة على ظاهرة السرقة أو التناسخ في الأدب العربي القديم كثيرة ومتعددة، تختلف من أديب إلى آخر ومن عصر إلى عصر آخر، ما جعل الدارسون العرب القدماء يتنبهون إليها ويولونها العناية الوفيرة، فنجد صاحب الحيوان إليها بقوله: "لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى عجيب غريب، أو في معنى شريف كريم، إلا وكل ما جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه" ¹⁶.

أشار الجاحظ من خلال هذا النص إلى فكرة السرقة، وهي في نظره التقاء نصين في فكرة سواء من حيث اللفظ أو المعنى.

ويرى ابن طباطبا العلوي أن على الأديب قبل أن يُنتج أدبه (شعراً أم نثراً) أن

¹⁵ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد الحميد صنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 (1999)، ص: 349.

¹⁶ - الجاحظ: الحيوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ج3، ط3 (1969)، ص: 311.

مصطلحات التناص في الدراسات العربية القديمة:

يعد مصطلح السرقة الأكثر شيوعاً في الدراسات العربية القديمة والأقرب إلى مفهوم التناص بالاصطلاح الجديد، وهي أخذ المعنى كله إما مع اللفظ كله أو بعضه، وتتخذ السرقة أشكالاً مختلفة هي:

- النسخ: وفيه يقوم السارق بأخذ المعنى واللفظ، أو أن يقوم بتغيير الألفاظ بمرادفاتهما، وهذا يعد من السرقة المذمومة عند العرب.

- المسخ: هو أخذ بعض اللفظ أو التغيير في النظم، فإن حسن سبكه فهو مقبول، وإن عجز السارق عن ذلك فهو مذموم.

- السلخ: وهو أخذ المعنى دون اللفظ وهو ممدوح في أغلب الأحيان.

يقترّب مصطلح التضمين التراثي من مصطلح التناص الحديث في المفهوم، فالتضمين في اللغة من "ضمّن الشيء الشيء: إذا أودعه

إياه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر" ¹⁹.

يديم النظر في أدب الآخرين، وأن يغترف من معانيهم، وينهل من مقاصدهم، ويرتشف من أفكارهم، وشبه الذي يتأثر بغيره كالذي يغترف من واد أو نهر قد مدته سيول جارية ¹⁷.

أفاد ابن رشيّق القيرواني النقد العربي بمؤلّفه "العمدة"، كما أفاد التنظير لهذه القضية الأدبية، فقد أفرد لها جزءاً من كتابه، وانفرد من خلاله بذكر مجموعة من المصطلحات التي تصب في باب التناص منها: الانتحال، الإغارة، الغصب، الاختلاس، المرادفة، الاهتدام، الالتقاط، التلفيق والموازنة... ¹⁸.

كان لزاماً على الدارسين القدماء أن ينظّروا لظاهرة السرقات الأدبية لأنها ظهرت في العصور الأولى التي ظهر فيها الشعر أو الأدب عموماً، كما أن هذا التنظير دليل على أن العرب القدماء عرفوا هذه الظاهرة فعلاً، فتطرقوا إليها على أنها قضية نقدية لا يمكن إغفالها بأي حال من الأحوال، وعليه فالتناص عند العرب القدماء عُرف من الناحية الإجرائية ومن الناحية التنظيرية.

¹⁷ - ينظر: ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، منشورات الخانجي، القاهرة (1987)، ص: 361.

¹⁸ - ينظر: ابن رشيّق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

¹⁹ - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، اعتنى به ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2007)، ص: 167.

والتضمنين عند البلاغيين هو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسم فتأتي به في آخر شعرك أو وسطه كالمتمثل²⁰. أو هو "استعارتك الأنصاف والأبيات من غيرك وإدخالك إياها في أثناء أبيات قصيدتك"²¹.

ويشمل التضمنين الأخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويتعداهما إلى الشعر وغيره.

أما الاقتباس فهو ضرب من ضروب التضمنين أو جزء منه، فيقوم صاحب النص خلاله بالاستشهاد بالقرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف دون سواهما، يقول الخطيب القزويني: "الاقتباس هو أن يضمن المتكلم في الشعر أو النثر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف على وجه لا يشعر بأنه منهما، ويجوز للمقتبس أن يغير في الألفاظ المقتبسة تغييراً يسيراً وما من ريب في أن الألفاظ المقتبسة تزيد الكلام قوة وتضفي عليه رونقاً وبهاءً"²².

يعد الاقتباس شكلاً من أشكال تفاعل النصوص وتداخلها، و"الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف يمثل

مظهراً من مظاهر تعامل الشعراء مع التراث الديني، ويوضح هذا التعامل موقف الشعراء إزاء القرآن باعتباره مصدراً من مصادر البلاغة المتميزة، ومنهلاً عذبا يريدونه ويغذون عقولهم وأرواحهم منه، ويفيدون منه في بلورة مواقفهم ووجهات نظرهم"²³.

إن العرب القدماء ضمنوا نصوصاً في نصوصهم إما إعجاباً أو استشهاداً، كما أنهم تنبهوا إلى ذلك بإطلاق عدة مصطلحات على هذا المفهوم من أهمها: النظر، الإهتمام، الإغارة، الاختلاس، الاصطراف، الاجتلاب، الانتحال، الموارد، المرافدة، الغصب، ونظراً لعدم التوافق حول مصطلح واحد ظهرت الدراسات العربية القديمة مشتتة غير متوافقة في كثير من الأحيان، لكن بالرغم من ذلك فهذه المصطلحات كانت قريبة من مفهوم التناص، يقول عبد الملك مرتاض في مفهومه للسرقات الأدبية: "إنها، مع التجاوز في التعبير، و التسامح في التعريف، اقتباس خفي أو ظاهر لللفظ أو جملة من الألفاظ، في سياق ما، وإعادة صياغتها في بيت واحد من الشعر غالباً"²⁴.

²⁰ - ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: مفيد قمiche، دار الكتب العلمية، بيروت(1981)، ص:47.

²¹ - أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2(2000)، ص:372.

²² - الخطيب القزويني: مرجع سابق، ص:359.

²³ - ماجد ياسين الجعافرة: مرجع سابق، ص:20.

²⁴ - نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص:199.

بينما التناص، "مع التسامح في التعريف، و التبسيط في التعبير أيضا، هو الوقوع في حال تجعل المبدع يقتبس أو يضمّن ألفاظا أو أفكارا كان التهمها في وقت سابق ما، دون وعي صُراح بهذا الأخذ الواقع عليه من مجاهل ذاكرته، و خفايا وعيه، فمفهوم التناص يعني ضرورة الإقرار بنسبة الإبداع، فكل ما يكتبه كاتب، أو يشعر شاعر، ليس إلا ثمرة من ثمرات القراءات أو السّماعات السابقة للمبدع"²⁵.

أشار عبد الملك مرتاض من خلال ما سبق إلى الفرق الجوهرى بين السرقة الأدبية و التناص، من خلال التنبيه إلى فكرة الوعي و الإدراك، فالسرقة تتم عن وعي من صاحب النص إما إعجابا أو تمثيلا أو استدلالا، بينما التناص فيتم دون شعور الأديب بالنصوص السابقة، حيث أنه يلتقي معها و ربما انه لم يسمع بها على الإطلاق، "فمن من الكتاب، إذن يستطيع أن يزعم أن ما يكتبه لم يخطر بخلد أحد من قبله، و لا فكر فيه، ولا التفت إليه؟ و من ذا الذي يجرؤ على أن يزعم للناس أن كتابته ابتكار محض: ألفاظا و أفكارا؟ إن كل كاتب ناهب؛ من حيث لا يشعر و لا يريد، فهو منذ نعومة أظافره يخزن الأفكار من أبويه..."²⁶.

ويفرق عبد الملك مرتاض بين التناص والسرقة بقوله: "...إننا لا نتحدث عن أولئك الذين ينهبون كلام الناس جهاراً، ويسطون عليه اقتساراً، فأولئك لصوص سيدانون حين تتكشف سيرهم، كما يدان لصوص المال والعقار، وسيرتهم تلك لا يقال لها تناص وإنما يقال لها تلصص، ولكننا نتحدث عن المبدعين الحقيقيين الذين يملأون الدنيا بما يكتبون وهم مع ذلك يدينون، في حقيقة الأمر، في كل ما كتبوا، للكتابات التي سبقتهم أو عاصرتهم من حيث لا يشعرون"²⁷.

نبه عبد الملك مرتاض إلى أفكار كثيرة ومتعددة من خلال حديثه عن فكرة التناص التي تبدو قديمة في المفهوم والتصور حديثة في المصطلح، فهي قديمة قدم البلاغة العربية، حديثة حدثة الأسلوبية.

التناص في الدراسات الحديثة:

اتخذ التناص أبعادا واسعة في النقد الأدبي عموما، حيث ظهر كنظرية قائمة بذاتها، فما من ناقد غربي أو عربي إلا وتحدث عنه، وما من متصفح للكتب النقدية المعاصرة إلا ويجد التناص جزءاً من هذا المؤلف أو أنه عنوان الكتاب بعينه.

كثر الحديث عن فكرة التناص في النقد الغربي، ولمن كانت الأسبقية في

المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر(1995)، ص:278.
²⁷ - المرجع نفسه، ص:278.

²⁵ - المرجع نفسه، ص:199، 200.
²⁶ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق

الحديث عنه؟ هل ميخائيل باختين أم جوليا كريستيفا؟ وما مفهوم التناص عند الدارسين الغربيين؟.

يعتبر ميخائيل باختين من الدارسين الذين استثمروا الأفكار التي جاءت بها المدرسة الشكلانية الروسية، فحول ماجاء به شلوفسكي حول التناص من مجرد فكرة إلى نظرية حقيقية تعتمد على التداخل القائم بين النصوص، ويعود الفضل له في شيوع مصطلح الحوارية (Diabgisme) ²⁸ الذي يقترب كثيرا من مفهوم التناص.

فالنص هو نتاج لحوارات مع نصوص أخرى، وتداخل قوي مع خطابات سابقة له، ليتشكل لنا في الأخير نسيج عدد كبير من الملفوظات التداولية داخل بيئة لغوية محددة.

ويقدر غريماس بأسبقية ميخائيل باختين في التنبه إلى فكرة التناص، وكان واضحا صريحا، "لقد أثار أهمية كبرى في الغرب (مفهوم التناص) منذ أن جاء به الميائي الروسي باختين، وذلك بفعل أن الإجراءات التي يتضمنها هذا المفهوم يمكن أن تكون قادرة على التبادل، من الوجهة المنهجية، مع نظرية المؤثرات التي

أسست عليها بوجه عام، بحوث الأدب المقارن" ²⁹.

ويستنتج عبد الملك مرتاض في الأخير أن أمر أسبقية استعمال مصطلح التناص قد اتضح؛ أي أن جوليا كريستيفا ليست هي التي أنشأت مصطلح التناص إنشاءً ولكن الذي أنشأه إنما هو ميخائيل باختين، فهذا المفهوم، إذن، وبناء على ما أورده غريماس وكورتيس، نشأ في روسيا، وليس في فرنسا" ³⁰.

لكن على الرغم من أسبقية ميخائيل باختين في الإشارة إلى مصطلح التناص إلى أن الحديث عنه يظل لصيقا باسم الباحثة الفرنسية جوليا كريستيفا.

كما اهتم جيرار جنيت _ الذي يعد علماً من أعلام النقد الغربي _ بفكرة التناص من خلال حديثه عن المتعاليات النصية (Transtextualité)، وذلك في مؤلفه معيار النص، فقام برصد العلاقات الخفية والظاهرة لنص معين، وهذا التعالي النصي يتضمن التداخل النصي بكل مستوياته، فقد يكون هذا التداخل وجودا لغويا من نصوص غائبة موظفة بشكل نسبي أو كامل أو عبارة عن استشهاد

²⁹ - نقلا عن كتاب: نظرية النص الأدبي، ص: 273

ينظر: Courtés et Greimas, sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage

³⁰ - نظرية النص الأدبي، ص: 273.

²⁸ - ينظر: محمد عنادي، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية، بيروت، ط1 (1996)، ص: 17.

بالنص الآخر داخل قوسين في النص المقروء، وقد تدخل ضمنه أيضا أنواع أخرى من التداخلات النصية مثل: المعارضة والمحاكاة الساخرة وعلاقة التغيير³¹.

لا يمكن أن ننكر الاجتهادات التي جاءت بها الدراسات الغربية في ضبط بعض المصطلحات النقدية، لكن كذلك لابد أن نتعامل معها بحذر شديد، لأننا لو ننظر نظرة ثاقبة في الدراسات العربية القديمة لوجدنا فيها جل المصطلحات التي يتغنى بها النقد الغربي من جهة، كما أنها تعد المرتكز الذي لابد على الباحث أن يسلكه لولوج الدراسات الغربية الحديثة.

موقف عبد الملك مرتاض من الصراع المصطلحاتي:

يعرف النقد العربي المعاصر نوعا من الوفرة المصطلحية، وقد تنعكس هذه الكثرة إما بالسلب أو بالإيجاب على الدراسات العربية المعاصرة عموما، فيمكننا أن نقرأ هذا الكم الهائل من المصطلحات على أنه أزمة مصطلحية يعانيها النقد الأدبي، كما يمكننا الحكم بإيجابية هذا الأمر لأن اللغة العربية ثرية في مفرداتها، وعلى الباحث استعمال المصطلح الذي يراه مناسباً.

ولكن لابد أن نقر في البداية أنه من العسير جدا على دارس مبتدئ أن

يستثمر الكم الهائل من المصطلحات الذي يحتويه النقد العربي عموما، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر الدراسات اللغوية كذلك، فمصطلح كالبنوية عرف عدة مصطلحات لمفهوم واحد؛ ومنها: البنائية، البنوية، البنوية، التكوينية...

إذن، فمن العقوق أن نهتف بأسبعية النقد الغربي في صناعة المصطلحات وإبراز مفاهيمها، متجاهلين النقد العربي القديم؛ الذي لم يترك قضية إلا وعالجها، يقول عبد الملك مرتاض: "ويخيل إلينا أن قدماء العرب ظلوا يحومون حول هذا المفهوم - الذي هو التناص - ولكنهم لم يتعمقوا في بحثه، فلم يستطيعوا، نتيجة لذلك، مجاوزة المصطلح التهجين الذي وضعوه أول الأمر، إلى مصطلح أدبي أدق وأشمل وأدلى"³².

يدافع عبد الملك مرتاض على الفكرة التي مفادها أن النقد العربي القديم قد عرف مفهوم التناص، ولكنه لم يتوصل إلى المصطلح المتداول في النقد الغربي (Intertextualité) المقابل لمصطلح التناص باللغة العربية، وقد أشار الباحث إلى الخلاف الفكري الذي وقع بينه وبين الدارس جابر عصفور عام 1986 حول علاقة السرقات بالتناص، حيث أبدى الثاني تحفظاً في وجود صلة بين المصطلحين، حينما أبرزها الأول في ندوة

³² - نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص:200.

³¹ - ينظر: جمال مبارك، التناص وجماليته في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة، ص:132.

عُقدت بجامعة صنعاء حول النقد الحداثي،
 "... وإنا قد قدمنا بحثاً عنوانه في نظرية
 النقد الأدبي إلى ندوة النقد الحداثي التي
 انعقدت بجامعة صنعاء منتهى سنة ست
 وثمانين وتسعمائة وألف. وقد كنا حاولنا
 إثبات صلة السرقات الشعرية بنظرية
 التناسخ. غير أن الصديق جابر عصفور
 ناقشنا بعد إلقاء البحث، من بين مناقشين
 آخرين، فزعم أن السرقات الشعرية لا
 ينبغي أن تكون لها علاقة بنظرية التناسخ.
 وقد قدم هذا الفاضل طائفة من
 الاعتراضات تحاول كلها إبعاد السرقات
 الشعرية المعروفة في النقد العربي من مجال
 التناسخية. ويبدو أن جابر عصفور كان
 يريد أن يجرّد النقد العربي القديم من أهم
 ما فيه" 33.

على الباحث أن يتمعن في مثل هذه
 الخلافات التي تقع بين الدارسين،
 ليتمكن في الأخير من الخروج ببعض
 الحلول النسبية التي قد تفيد النقد العربي
 عاجلاً أم آجلاً، وعليه فهذا الصراع المعرفي
 بين الدارسين منطلقه في اعتقادي المنهل
 الفكري الذي استقى من معينه كل
 باحث منهما من جهة، كما أنه يعود إلى
 اشتغال الدارس عبد الملك مرتاض على
 الدراسات العربية القديمة وربطها
 بالدراسات الغربية الحديثة خصوصاً وأن
 العالم خبير في البلاغة العربية القديمة التي
 تعد جزءاً لا يتجزأ من النقد الأدبي القديم،

³³ - المرجع السابق، ص: 194.

كما أنه مضطلع بخبايا الأسلوبية الحديثة
 التي تعد منهجاً من مناهج النقد المعاصر.

ويدافع الدارس ماجد ياسين الجعافرة
 على الفكرة نفسها حين رأى بأن النقد
 العربي القديم قد عرف مفهوم التناسخ دون
 المصطلح المنتشر اليوم في النقد المعاصر،
 حيث يقول: "لقد تنبه النقاد العرب إلى
 التناسخ وإلى دوره ووظيفته واستحسنه
 شعراؤهم واستخدموه استخداماً لا يبتعد
 كثيراً عن مفهوم اليوم، وإن كنا نلاحظ
 توسيعاً في المفهوم لاستخدامه اليوم،
 ولكن العرب لم يقعوا على الاسم نفسه
 التناسخ فكان اقترابهم من اسم آخر هو
 التضمن" 34.

ييدي الدارس عبد الملك مرتاض
 استياء من النقاد الذين تاهوا في غيابات
 النقد الغربي متمهين في نظرياته مستدلين
 بأفكار أعلامه، متناسين الدراسات
 العربية القديمة الحافلة بالأفكار والمعارف
 التي لم تسبقها أمة إليها، ولم يتداركها
 الغرب إلا مؤخراً ويحسبون أنهم أول من
 تنبه إليها، "ومن الأمثلة على تجلّي الآخر
 فينا، وفي تفكيرنا، أن النقاد العرب
 المعاصرين - ولا داعي لذكر بعض
 أسمائهم فإنهم، بنعمة الله، كثير- لَمَنُ
 لا يزال يستهوي أن يُنكر سرّاً وجهاراً، أن
 يكون النقد العربي القديم قد أسهم في أيّ
 أساس للنظريات النقدية الغربية الجديدة.

³⁴ - ماجد ياسين الجعافرة: مرجع سابق،
 ص: 21.

بل إن منهم لَمَنْ لا يزال الفكر والتفكير وقَفَهُمَا اللَّهُ على الحضارة الغربية وحدها" 35.

إن قضية الصراع بين القديم والحديث أزلية، منذ أن بدأ الإنسان في التفكير، وكذلك الشأن بالنسبة للصراع المصطلحاتي، إما بين القديم والجديد، وإما بين الدارسين الذين ينتمون إلى فترة زمنية محددة، ونحسب أن هذه الوفرة في المصطلحات هو نتيجة حتمية لثراء اللغة العربية من جهة، وعلى التطور الفكري الذي يتسم به الناقد العربي القديم والمعاصر

فعبد الملك مرتاض قد اهتم بمصطلح التناص وتتبع مساره بنوع من الدقة مبتدئاً بما جادت به قرائح الدارسين العرب القدماء، مثيباً بما جاء به النقد الغربي المعاصر، مختتما بحال النقد العربي المعاصر الذي كان عليه أن يستثمر ما جاء في النقد الآخر ويسقط ذلك على النقد العربي القديم فما وافق استخدمناه وما خالف أبعدناه، وعليه فلا نقع في المشاكل التي يعانينا نقدنا اليوم.

إن قضية الصراع بين القديم والحديث أزلية، منذ أن بدأ الإنسان في التفكير، وكذلك الشأن بالنسبة للصراع المصطلحاتي، إما بين القديم والجديد،

وإما بين الدارسين الذين ينتمون إلى فترة زمنية محددة، ونحسب أن هذه الوفرة في المصطلحات هو نتيجة حتمية لثراء اللغة العربية من جهة، وعلى التطور الفكري الذي يتسم به الناقد العربي القديم والمعاصر

فعبد الملك مرتاض قد اهتم بمصطلح التناص وتتبع مساره بنوع من الدقة مبتدئاً بما جادت به قرائح الدارسين العرب القدماء، مثيباً بما جاء به النقد الغربي المعاصر، مختتما بحال النقد العربي المعاصر الذي كان عليه أن يستثمر ما جاء في النقد الآخر ويسقط ذلك على النقد العربي القديم فما وافق استخدمناه وما خالف أبعدناه، وعليه فلا نقع في المشاكل التي يعانينا نقدنا اليوم.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

01- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد الحميد صنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1(1999).

02- الجاحظ: الحيوان، دار الكتاب

العربي، بيروت، ج3، ط3(1969).

03- ابن رشيقي القيرواني: العمدة في

محاسن الشعر وأدبه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

- نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص:189. 35

06- سعيد سلام: التناسل التراثي،
الرواية الجزائرية أنموذجاً، عالم الكتب
الحديث للنشر والتوزيع ،الأردن،
ط1(2010).

07- عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي،
دار النهضة العربية، بيروت، ط2(1391-
1972).

08- عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب
السردى معالجة تفكيكية سيميائية مركبة
لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية،
الجزائر(1995).

09- عبد الملك مرتاض: نظرية النص
الأدبي، دار هومة، الجزائر(2005).

10- عمر عبد الواحد: دوائر التناسل،
دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1(2003).

11- ماجد ياسين الجعافرة: التناسل
والتلقي، دراسات في الشعر العباسي، دار
الكندي، ط1(2002).

12- محمد عنادي: المصطلحات الأدبية
الحديثة، الشركة المصرية العالمية، بيروت،
ط1(1996).

13- مصطفى السعدني: في التناسل
الشعري، مطبعة الجلال، الاسكندرية
(2005).

المراجع الأجنبية:

1- Courtés et Greimas, sémiotique,
dictionnaire raisonné de la théorie du
langage

04- الزبيدي: تاج العروس من جواهر
القاموس، اعتنى به ووضع حواشيه: عبد المنعم
خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود،
دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2007).

05- ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر،
تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، منشورات
الخانجي، القاهرة(1987).

06- ابن منظور: لسان العرب ، دار
صادر، مج: 07، ط1(1990).

07- أبو هلال العسكري: الصناعات،
تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية،
بيروت(1981).

المراجع العربية:

01- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات
البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون،
بيروت، ط2(2000).

02- بدوي طبانة: التيارات المعاصرة في
النقد الأدبي، دار المريح، الرياض،
ط3(1406- 1986).

03- جمال مبارك: التناسل وجماليته
في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة للنشر
والتوزيع، الجزائر(2003).

04- حسين منصور العمري: إشكالية
التناسل، مسرحيات سعد الله ونوس أنموذجاً،
دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن،
ط1(2007).

05- رمضان الصباغ: في نقد الشعر
العربي المعاصر، دراسة جمالية، دار الوفاء
مصر، ط1 2002.

